اتجاه الشعر العربي الحديث

إن نهضة الأدب العربي الحديث بما يتميز به من اتجاهات تختلف تماماً عما كانت عليه الأعمالُ الأدبية في القرون الطويلة الماضية ، وتعتبر ظاهرة مدهشة ولكنها تساير الوعي الوطني والعقلي للشعوب الإسلامية بوجهٍ عام . فبعد أن خلق الإسلامُ علماً وأدباً وفناً خلال القرون الوسطى أنقذ ثقافة القدماء من النسيان وزادها ونقلها الى الشعوب الأوربية التي تنبعث وشيكاً من عالم الهمجية وبهذا قدّم الإسلامُ ولغته العربية خدمةً جليلةً للإنسانية . ولا يعرفُ التاريخ نظيراً للانطلاق الفجائي والمستوى الرفيع الذي بلغه المسلمون في العلم والأدب والفن . ولكن الظروف الجغرافية والاجتماعية والسياسية والفكرية . وقفت هذا التطور الفذّ فاقتصرت اللغة العربية طوال قرون على مجرد التعليقات والشروح . ولا أريد أن أتحدث عن أسباب تدهور الشعوب الإسلامية لأني سبق أن وضعت كتاباً في هذا الموضوع نشرته في لاهور باللغة الانكليزية عام ١٩٥٣ .

فعندما أضاعت الشعوب الإسلامية استقلالها السياسي قنعت بموقفها؛ الى أن أيقظتها حملة نابليون من سباتها العميق . وفي خلال بضع عشرات من السنين قامت اللغة العربية ملكة اللغات السامية والتي كانت قد أوشكت أن تموت فبعثت من جديدٍ بكل أمجاد ماضيها ، مزينةً بكل ما حققته المدنية الحديثة واستطاعت أن تواجه أعداءها القدماء بكل فخار .

وقد أتيحت لي الفرصة أن أكون على اتصال وثيق بحركة التجديد والنهضة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي شملت الشرق الإسلامي . ففي فجر شبابي التحقتُ بكلية الحقوق في استانبول قبل ٥٥ عاماً وقذفتُ بنفسي وقتئذٍ في معارك النضال الاجتماعي للدولة العثمانية . وعاصرتُ البيئة الخانقة لحكم السلطان عبد الحميد وشاهدتُ الفرح الغامر بعد خلعه عن عرشه . ثم شاهدت الآلام التي كانت تعانيها الشعوبُ خلال الحرب العالمية الأولى ثم مولد الجمهورية التركية الجديدة وهي الجمهورية الوليدة التي قطعت جميع ارتباطها القديم بالعالم العربي وبقية المسلمين عندما أعلنت أنها دولة لادينية .

لقد شهد القرن العشرون تغيرات بعيدة المدى في الحياة السياسية للشعوب جعلتها تختلف اختلافاً بيناً عما كانت عليه طوال القرون . فقد تحوّلت ألمانية والنمسة وروسية وتركية الى جمهوريات ، وحتى الصين البعيدة قد ألقت عن كاهلها عرش ابن السماء .... كل هذه الأحداث كان لها أثرها العميق في أدب الأتراك .

إن الأدب هو التعبير عن أفكار الشعب ومشاعره وهو يصور الحياة الاجتماعية والاقتصادية للشعب ، وهو يتأثر تأثراً عميقاً بالاتجاهات السياسية للعصر ، ويؤثر بدوره في اتجاه السياسة . وصورة أدبٍ ما ، مجردة عن بيئتها الاجتماعية والسياسية هي صورة باهتة مضطربة .

وقد كان الأساس الاجتماعي والسياسي للأدب العربي الحديث حتى نهاية الحرب العالمية الأولى يرجع الى بيئة الدولة العثمانية التي كانت مكونة من متعدد القوميات والديانات والعناصر والمستويات الثقافية ، والتي كان كل عنصر فيها يحقد على العناصر الأخرى ، وقد كان المسيحيون من رعايا السلطان من الصرب والبلغاريين واليونانيين والأرمن والمارونيين يتطلعون على الدوام ، الى حماية حكومات أجنبية . وكانت حكومة تركية تلجأ بين الحين والحين الى اتخاذ اجراءات عنيفة ضد الخارجين عليها من القوميات الثورية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولو كانت الدولة العثمانيـة ، التي يحكمها أمير مسلم ، قد طبقت الشريعة الإسلامية التي تفرض عليها أن تمنح الحقوق المدنية الكاملة لغير المسلمين من رعاياها ـ كما كانت الحال في دولة العباسيين وفي الأندلس ـ لكانت أول دولة تطبق مبدأ اللاعنصرية في التاريخ الحديث . وكان في الامكان أن تطبق هذا المبدأ دول أخرى بالمثل .

ولكن الروح الغربية الداعية الى التعصب العرقي ، طغت على إمكانية تطبيق مبدأ اللاعنصرية وجعلت كل قومية تتعصب لعرقها وتعادي القوميات الأخرى .

نرى من تتبع التواريخ أن الاعتبارات النظرية والأفكار الاجتماعيـة ، مهما أوتيت من منطق ، فلم تكن لها القوة الحاسمة التي تستطيع أن تغير المشاعر والأفكار السائدة في ذلك العصر ، وهي التي كانت تدفع تلك الشعوب دون هوادة للعمل على تحقيق أحلامها مهما كانت وعورة الطريق الذي تسلكه ... !

وقد حاول الحكم الاستبدادي للسلطان عبد الحميد ، بكل جبروته وأساليبه الارهابية أن يقف في وجه التيار الفكري لتلك الحقبة من الزمن ومن ثم سعى ذلك الحكم إلى إقامة امبراطورية لا عنصرية مؤسسة على المبادئ السياسية للإسلام ، حتى انها قد وسعت دائرتها الدينية الى المستعمرات الهولندية والبريطانية والفرنسية التي تفوق المسلمون فيها عدداً على العناصر الأخرى . ودون أن تتفق مع حكومة عبد الحميد في أساليبها البغيضة التي اتبعتها لتحقيق أهدافها ، نستطيع أن نقول انها كانت تبذل جهداً نهائياً ـ لا يستهان به ـ في وجه مصاعب مروعة ، في سبيل إقامة دار الاسلام المثالية في العصر الحديث .

وقد كان المنتسبون الى حزب : تركيا الفتاة ، وكذلك أنصار الفكر الوطني في مصر ينبعون من الطبقة المتوسطة القليلة العدد ، وهي الطبقـة التي كانت ترغب في تنفيذ مطالبها الثقافية والاقتصادية عن طريق اكتسابها للحرية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم تكن في الدولة العثمانية أية صناعة آلية ، ولم تستطع هذه العناصر التقدمية ذات الأفكار التحررية أن تكتسب تأييد الجماهير الزراعية الواسعة من الفلاحين أو جماهير الفقراء . ولهذا انحصرت الاتجاهات الثورية في مثقفي المدن ، وكانت نتيجة الضغط الذي جاء من أعلى ظهور رد فعل ثقافي وهو الذي خلق أدباً وطنياً . وقد خلقت مجلة « ثروت فنون » التركية كثيراً من الأدباء الذين تطوّروا بالرواية التركية حتى أصبحت تناقش المشاكل الاجتماعية بلغة سهلة يفهمها القارئ المتوسط الثقافة .

وعلى أي حال فانّ الحكم الاستبدادي للسلطان عبد الحميد لم يقتصر على إلهام الشعراء والكتاب الأتراك للتعبير عن إحساساتهم الوطنية فحسب ، بل امتد هذا الإلهام أيضاً الى أتباع السلطان من الناطقين بالضاد الباقين على ولائهم للخليفة ، والذين لم يستطيعوا أن يحبسوا دموعهم لمرأى الحالة الذليلة التي أصبحت عليها البلاد . وكانت مصر تتمتع بحرية نسبية لأنها لم تكن تحت حكم السلطان بطريقة مباشرة ، ولهذا وجد فيها عدد من الكتاب العرب المضطهدين ملجأ على ضفاف النيل . وقد كان استبداد عبد الحميد هو الذي أوجد ذلك الطراز الجديد من الشعر العربي الذي يختلف تماماً عن القصائد التقليدية القديمة .

وكان من بين الضحايا العديدة لحكم السلطان عبد الحميد ولي الدين يكن المولود في استانبول والذي كان يفتخر بجنسيته المصرية ، فقد سار ضد الطغيان قائلا :

يبكي بنوك ويضحك الزمن ماذا أصابك أيها الوطنُ
ما أوشكت أن تنتهي محن إلا وجاءت بعدها محنُ
أما الرسومُ فإنها دُرست أما الرجال فإنهم دُفِنوا
العصر ، راجت سوق باطله فالحق فيه ماله ثمن
يا قوم هبوا من مضاجعكم طال المدى حتّام ذا الوسن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد كان الشعور بالاضطهاد الذي أثار ولي الدين يكن في استانبول هو نفس الشعور الذي عبَّر عنه جميل الزهاوي في العراق في قوله :

نحن في غفلةِ نيام وعنّا نائبات الزمان غيرُ نيامِ
نحن في دولة تدار كها الله تبيح المحظورَ للحكام
وعدها بالاصلاح جمٌّ ولكن لا يجوز الاصلاح حد الكلام
نحن قوم على إرادة شخصٍ واحدٍ ان نعيش كالأنعام

وقد اقتطع طمع الحكومات الغربية ولايةً بعد أخرى من جسم الدولة العلية ، اليونان ، ورومانية ، وبلغارية وكريت وقبرص ، ولم تُبدِ أي ولاية منها رغبةً ما في العودة الى الحكم العثماني ، حيث ينتظرها فيضٌ من الاضطهاد والتقتيل .

وما أكثر الحزن الذي ألهم الأبيات الآتية :

رعى الله شعباً أهملته رُعاتُهُ وملكاً كبيراً ركنه متزعزعُ
تُقطع منه كلَّ يومٍ مدينةٌ وما الكفّ إلاّ إصبعٌ ثم اصبعُ

وقد نُفي ولي الدين يكن الى مدينة سيواس بالأناضول ، حيث بقي ينظر بقلبٍ كسيرٍ الى المصير المرّ لمواطنيه . وكان اليأس يغلب عليه أحياناً في أشعاره التي منها قوله :

يقول أحبتي صبراً وهل في النار يُصطبر
ونحن أمامنا وطنٌ تراه اليومَ يُحتضرُ
فمن يجزع فمعذور ولكن قلَّ من عُذروا
فيا أفق التهب حزناً وجد بالدمع يا مطرُ

ولكن الآمال المحطمة تحققت آخر الأمر ، فقد سار الجيش التركي تحت قيادة نيازي وأنور نحو العاصمة في عام ١٩٠٨ وأرغم عبد الحميد على إعلان الدستور .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهنا عانق الأتراك والعرب والأكراد والشراكسة ، المسلمون منهم والمسيحيون ، بعضهم بعضاً ، وظهر أن شعباً متحداً جديداً قد نشأ من الأشلاء الممزقة التي كانت من قبل ، وبلغ الفرح أطراف أمريكا البعيدة حيث هاجر الكثيرون من العرب الفقراء .

وأقيمت الأعياد والأفراح في شتى أنحاء الدولة وظهر الشعراء كما تظهر الزهور البرية ، ففي سورية ولبنان ظهر عبد الله البستاني ومحيي الدين الخياط وشكيب أرسلان ، وإلياس فياض ، وشبلي ملاّط . وفي مصر التي اهتمت بالانقلاب الجديد بطريقة غير مباشرة ظهر أسعد رستم وسعيد عُقيل وغيرهما . وفي العراق ظهر الزهاوي ، والرصافي والدجيلي والعبادي والهنداوي ، الذين مجدوا قدوم الحرية . وقد وصف الزهاوي شعور بغداد في ذلك الوقت قائلاً :

وقفتُ والعينُ تبكي من مسرّتها ... أمام شعبٍ من الأفراح عجّاج
امام بحرٍ من الأفكار مضطربٌ ... امام جيش من الأصوات دحراج
إنّ الشعوب إذا هاجت عواطفُها ... كالبحر يضرب أمواجاً بأمواج

أما مصرُ التي كانت بعيدةً عن الاضطراب الذي مارسته الحكومة العثمانية ، فكانت لا تزال مرتبطةً بتقاليد الخلافة . فنرى أحمد شوقي الشاعر الشهير في قصيدته التي كتبها بمناسبة اعلان الدستور يمتدح حكم السلطان عبد الحميد قائلاً :

أسدى الينا أميرُ المؤمنين يداً ... جلّت كما جل في الأملاك مُسديها
بيضاء ما شابها للأبرياء دمٌ ... ولا تكدر بالأيام صافيها
وليس مستعظماً فضل ولا كرم ... من صاحب السكة الكبرى ومنشيها

ولكن الشاعر لا ينسى مُطلقاً شعوره الوطني الغريزي فيقول :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب ... حيّاك من يبعث الموتى ويُحييها
صبرت للحق حين النفس جازعةٌ ... والله بالصبر عند الحق موصيها
نلتَ الذي لم ينله بالقضا أحدٌ ... فاهتف لأنورها واحمد نيازيها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد عبّر الشاعر الكبير حافظ ابراهيم عن حسن نية السلطان عبد الحميد فامتدح كرم أخلاقه :

أثنى الحجيجُ عليك والحرَمان وأجلّ عيد جلوسك الثقلان
أرضيت ربك إذ جعلت طريقه أمناً وفزت بنعمة الرضوان
وجمعتَ بالدستور حولك أمةً شتى المذاهبِ جمة الاضغان

أما سعيد شقير فيقارن بين سعادة الحاضر وآلام الماضي في أبياته الآتية :

اليومَ نمرحُ أحراراً بفضلكم نغدو ونُمسي ولا همّ ولا نَصَبُ
قد أطلق الحرّ من سجن أهين به وعاد للوطن المحبوب مُغتربُ
فلا جواسيس تخشى من وشايتهم ولا جرائد تأتينا فترتعب
ننام في الليل لا الأحلام تقتلنا وننهض الصبحَ لاخوف ولا رعب
كم بين حالٍ أتتنا كلها طربٌ وبين حال عدتنا كلها رهب

ولكن هيهات ، فلم يبق الفرح طويلاً . إذ عاد عبد الحميد فقبض على السلطة من جديدٍ وألغى الدستور ، واستأصل حزب تركيا الفتاة من البلاد . ولكن محمود شوكت باشا الذي ينحدر من أسرة الخليفة عمر ، قاد الجيش مرة أخرى الى استانبول وبعد قتالٍ عنيفٍ هزم القوات الموالية للسلطان وخلع عبد الحميد من عرشه .

وقد صادف خلعه ارتياح جميع العالم الإسلامي الذي شهد سلسلةً من الأشعار حول هذا الأمر ، وقد سبه فارس الخوري في قصيدة له فقال :

شادوا لك العزةَ القعساء من قِدَم فجئت تهدِم ما شادوا وما رسموا
كانت لهم دولةٌ بالسيفِ ناهضةٌ هدّمتَ مارفعوا بعثرتَ ما نظموا

وأعلن معروف الرُصافي الشاعر العراقي في افتخار :

انما نحن أمةٌ تدرأ الضيمَ ولا تستكينُ يوماً لوالٍ
أمة سادت الأنامَ وطابت عنصراً من أواخر وأوال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاذا ما علا الغشوم نهضنا فقذفناه سافلاً من عال
نحن من شعلة الجحيم خُلقنا لأولي الجور ، لا من الصلصال

وتقرأ علامات التهديد في الأبيات الآتية :

يا ملوك الأنام هلاّ اعتبرتم بملوكٍ تجور في الأفعال
فاتركوا الناس مطلقين وإلاّ عشتم موثقين بالأوحال

لقد فتح الشعراء السوريون والعراقيون قلوبهم وتركوا مشاعرهم تسيل في انطلاق . ولكن مصر للأسباب التي سبق ذكرها - استقبلت سقوط عبد الحميد بمشاعر متضاربة . وقد ظهر لبعض الكتاب أن الاحتلال الأجنبي أكثر ضرراً من حكم السلطان عبد الحميد لأنه كان على أيّ حال أمير المؤمنين .

وقد طلع القرن العشرون على الشعوب الشرقية وهي مصابة بمركّب النقص . وقد ذُقتُ بنفسي مرارة هذا الشعور الذي كان يعانيه إخوتي في الإسلام . وقد كان انتصار اليابانيين في مانشورية على الروس عام ١٩٠٥ أول تشجيع أحيا شعورَ جميع الشرقيين . وتواترت الأنباء وقتئذ بأن اليابان ستعقد مؤتمراً إسلامياً في طوكيو مما ألهب شعور الشعوب الشرقية .

وقد أدخلت الامتيازات الأجنبية التي فُرضت على المسلمين ، والمدارس التبشيرية المسيحية في روع الشرقيين المستغَلين ، الفكرة الزائفة من أن كل أوربي هو ضرب من السوبرمان ، أي الإنسان الممتاز .

* * *

وقد أيقظ سليم البستاني الوعي في قلوب مواطنيه السوريين كما كتب الزهاوي في العراق الأبيات الآتية لتعوّض مركّب النقص :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كفى الغربَ فخراً أنه متقدم ... وأنّ له مالاً به يتنعّمُ
وأنّ له في البر جيشاً عرمرماً ... يماثله في البحر جيش عرمرم
ترقّى فلما اشتدّ ساعده عتا ... وبات يُغيظ الشرق والشرق يكظم
يُطيل على إجحافه بحقوقه ... سكوتاً كأن الشرق ليس له فم
فيا أيها الغربُ المدلّ بنفسه ... رويدك ما هذا الغرورُ المذمّمُ
أتزعمُ أن الشرق يلبثُ صاغراً ... أمامك مغصوباً وأنت المكرّمُ
وتبقى عليه هكذا منسيطراً ... تمصّ دم الأموال منه وتهضمُ !

وشمل الوعي الوطني جميع المسلمين الذين عاشوا تحت الحكم العثماني حتى المسيحيين في لبنان قد شعروا أيضاً بشعور الجنسية العثمانية بعد اعلان الدستور . وقد دعى خليل زينيه المسيحي الى عقد اجتماع بالاسكندرية قال فيه :

فلتسعدوا أيها العثمانيون لأنكم اكتسبتم الدستور . فقد جاء أخيراً اليوم الذي يستطيع فيه جميع الأتباع أن يتحدوا في عناق أخوي . فبواسطة الدستور أصبحنا عثمانيين ونحن نفتخر بوصفنا عثمانيين . اننا عثمانيون قبل كل شيء الى آخر عُمرنا . وشعارنا الحرية والوطنية وفخرنا راية الهلال وملجأنا الدولة العلية .

وتغلغل هذا التحمس طوال سنتين في كل شعوب الدولة من أتراك وشراكسة وأكراد وعرب ، مسيحيين ومسلمين . كما لو كانوا قد اتحدوا ضد الاتجاهات الاستقلالية للغرب وسعوا الى خلق دولةٍ عثمانية متحدةٍ مستقلةٍ . وقد خلّد الأدب العربي المعاصر هذا الشعور في كثير من آثار الشعر والنثر . ولكن الفرح العظيم سرعان ما تبعته همومٌ ثقيلةٌ ، فان الغرب الطامع لم يقابل هذه الأشعار بأشعار مثلها ولكنه أطبق بقبضته على أجزاء جديدة من جسم الرجل المريض ، فضمت النمسة أول الأمر ولاية بوسنه ، فيئس الرأي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

العام العثماني وقاطع البضائع النمسوية ، وينتحب شبلي الملاّط اللبناني بمرارة في هذه الأبيات :

ألا من يبلغ النمسا كلاماً نسجّله ونورثه البنينا
بأن عهودها كانت سراباً وكان ودادُها بَلْفاً مُبينا
فلا تجدُ السنون الى التصافي سبيلاً ما تعاقبَ السنونا
أو النمسا تكفّر عن ذنوب جنتها فارتدت عاراً وهونا
أتحسبُ جارةُ الدانوب أنّا نُذِلُّ لمثلها أبداً جبينا

واستولت بعد ذلك ايطالية على طرابلس الغرب واليونان على كريت ، وانطلق أمين ناصر الدين اللبناني في سخط يقول :

أظن بنو اليونان أن سيوفَنا تثلّمن أم أخفى علينا التأخر
ألم يذكروا بالأمسِ ما كان بيننا على حين خُضنا الموت والموت يزخرُ

لقد هزم الجيش العثماني تحت قيادة أدهم باشا في عام ١٨٩٧ الجيش اليوناني هزيمةً منكرة وكان ذلك تحت الحكم غير الشعبي للسلطان عبد الحميد ، فما كان أحرى الدولة بأن تكونَ أقوى وهي متمتعة بحريتها الوطنية .

وخلتم توالي الظلم اورث شعبنا خمولاً وأصبحنا على الظلم نصبرُ
قهرناكم والملك قد كان ذاوياً فكيف وروض الملك فينان أخضر

أما الرُصافي العراقي فانه يصم ايطالية بالعار عندما اجتاحت طرابلس الغرب ونغمة قصيدته اسلامية وعثمانية معاً :

ألا انهض وشمر أيها الشرقُ للحرب وقبّل غرار السيف واسلُ هوى الكتب
ولا تغترر إن قيل عصر تمدنٍ فان الذي قد قال من أكذب الكذب
ألست تراهم بين مصر وتونس أباحوا حمى الإسلام بالقتل والنهب
وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم ولكن جميع الغرب يؤخذ بالذنب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما شعراء العراق الآخرون ، مثل رضا الشبيبي وحبيب العبيدي وخيري الهنداوي وعزيز الجواهري ، فقد أيّدوا السلطان الجديد وحفزوه على درء العدوان . وفي حلقة الأدب العربي باستانبول ألقى حبيب العبيدي قصيدته ذات الخمسمائة مقطع التي تضمنت تاريخ الإسلام كله والتي تستثير الشعور الوطني الإسلامي ، وربما كانت بعضُ سطورها كافيةً كنموذج :

كيف ترضى ياشرقُ أن يمشي الغر ب أماماً وأنت تمشي وراءْ
أفلم يأن أن تجدّد عهداً شهدَ الصبحُ فضلَه والمساءْ
اتسامُ الهوانَ دون المنايا انما الموت والهوان سواءْ

وذكر حافظ ابراهيم في مصر الهجومَ الفادر على طرابلس الغرب في قصيدة طويلة .

والآن تسمحوا لي أن أذكرَ بعضَ الشؤون الاجتماعية ، وقد قرّبت التقاليد التاريخية وكذا الدين الإسلامي بين أعضاء الطبقة المتوسطة . أما الطبقة العاملة وأصحاب الحرف والفلاحين فلم يكونوا قد تيقظوا الى الوعي الاجتماعي فتبعوا كالعميان الاتجاهات الفكرية للمثقفين . كان هناك حلم حول قيام التعاون الوطني تحت حكم آل عثمان الذي تقوده الشريعة . ولكن هذا الحلم تمزّق شر ممزق تحت وطأة النظرية التورانية ، وهي النظرية التي كانت تعمل لضمان الدور القيادي للجنس التركي وحده ، لا الأتراك العثمانيون فحسب بل وكل الشعوب التي تتحدث باللغة التركية التتارية سواء في سيبريا أم في غيرها .

كانت النظرية التورانية نظريةً وطنيةً عرقية تعمل على الإضرار في دولة مكوّنةٍ من عروقٍ مختلفةٍ وكان رفين التورانية يحكي نذير الموت للدولة العثمانية الدستورية .

وعندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى كان أعضاء حزب تركية الفتاة يحاولون أن يربطوا بين قوتين متعارضتين في سبيل المحافظة على الكيان الكلي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فقد أعلنت الحكومة الجهاد الذي كان فريضةً واجبةً على كل مسلم ، وكانت تعمل في ضمان مؤازرة مسلمي الهند وفي أن يهب المسلمون في افريقيا ضد الفرنسيين ، ولكنها حاولت في نفس الوقت أن تضمن للطبقة الحاكمة التركية ، القيادة المطلقة .

اتجاه أتباع الباب العالي من غير الأتراك كان مقسّماً : كان الفريق المتحدث باللغة العربية يؤمن بانتصار الحلفاء ، إذ لم تكن ألمانية قد ظهرت على مسرح السياسة العثمانية إلا حديثاً . أما الفريق الآخر فكان يتألف من تلك العناصر التي كانت تظاهر حزب تركية الفتاة لأسبابٍ شخصية .

ولم تستطع أحكام الإعدام التي أوقعها جمال باشا على الوطنيين السوريين أن تُطفئ اللهب الذي امتدّ مع الوقت الى الجزيرة العربية أيضاً . وقد سقط عدد كبير جداً من الشهداء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل الحرية ، وقد قامت القومية العربية قويةً وكأنها قد طُعّمت بدماء أولئك الشهداء الشرفاء . وقد ندب خير الدين الزركلي الشهداء في أبيات تمسّ أوتار القلب فقال :

نعى نادب العُرب شبّانها فجدّد بالنعي أحزانها
بكى كل ذي عزّة ترْبَهُ فهاج نزاراً وعدنانها
فمن للمدامع أن لا تفيـــض وتُرسل كالسيل هتّانها
فجائعُ هنّ حديثُ القلو بِ وهيهات تُطيع سلوانها

إلاّ أن نهاية الحرب أتت على حزب تركية الفتاة ، ورفرف العلم العربي الجديد على تلك البقاع التي كانت تقام فيها المشانق قبل سنتين ، وقد حيّا الأدب العربي الثغير الجديد بحماسةٍ بالغةٍ . وعبّر مصطفى الغلاييني عن آمال المستقبل السعيد بهذه الأبيات :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

راية العُرب راية المدنيه راية المجد راية الحريه
أنتِ مهوى آمالنا الوطنيه ومنارٌ يهوى السبيل السويه
دُمتِ فينا مدى الزمان عليّه

بكِ نحمي الحمى المفدّى ونحيي ثمراتٍ تُحيي القلوب وتُغني
ونُرجّي الحياةَ في روضِ أمنٍ وارف ظله خصيبٌ أغنّ
في حمى دولة العُلى العربيه

ولكن هذا الحُلم المقدّس تبعثر بقسوة تحت وطأة الأطماع الأنانية ، فقد روّع النجاح حكومات الحلفاء وتغلبت الروح الاستعمارية فتنكر الحلفاء لوعودهم التي بذلوها أثناء شدّتهم ، واقتسموا تلك المساحات الشاسعة فيما بينهم كغنائم حربٍ على مذبح مصالحهم ، فصارت سورية وفلسطين تحت الانتداب ، أما الأردن ومصر والعراق فبقيت تحت الحماية البريطانية .

وكانت خيبة آمال الرأي العام العربي غايةً في المرارة ، فقد أثبتت الأيام أن المبادئ الأربعة عشر للرئيس الأمريكي ولسون لم تكن إلاّ خداعا . فقد أطبق أخطبوط الرأسمالية الطامعة على ذوي النيات الحسنة وداسهم بالأقدام .

وقد احتجّ خير الدين الزركلي والغلاييني في سورية وحتى شعراء المهجر من وراء البحار مثل جورج صوايا والياس فرحات في البرازيل ضد الغصب الأجنبي . وهاجم الغلاييني في جرأة خداع المستعمرين وقحتهم في السطور التالية عام ١٩٢٠ ، قال :

هبوا فأمنكم أضحت على خطرٍ جارت عليها الأعادي جور منتقمِ
حتى تسيل ربوع الشام مفعمةً دماً يسيل الردى في سيله العرِم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وذمة العُربِ والأيام شاهدةٌ لنغسرمنّ الوغى في السهل والظلم

حتى يخلوا بلاد العرب أجمعها من ساحل الروم حتى ساحل العجم

لقد كان الشعراء في كل مكان أبواقاً للثورة العامة . وقد أبقى الأدب العربي الوعيَ القومي حياً ، ثم قاد القضية أخيراً في طريق النصر . والآن ، ونحن في دولةٍ حُرّةٍ لا نزال في حاجة الى الكفاح ، فلسنا نستطيع أن نلقيَ سلاحنا وهو القلم إذ علينا أن ندافع عن حرية الشعب ضد الاستغلال ، وأن نحرّر الفقراء من همومهم وأن نرفعَ الجماهير الى مستوى الحياة السعيدة .

عبد الكريم جرمانوس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net